اخترنا للطالب



اخترنا للطالب
العدد ٤٥

مواقف مجيدة

فى الثورة العرابية

بقلم
محمود الخفيف



* رائد القومية العربية *

تمهيـــد ..

الثورة العرابية حركة قومية من أجل الحركات التى شهدها القرن التاسع عشر ، وحق لمصر أن تفخر بهذه الحركة التى تنطوى على كل معانى الحركات القومية والتى انبعثت فيها فى ذلك القرن الذى أخذت تفخر فيه أوربا بما انبعث فيها من قوميات ، وزعمت أنها وقف عليها دون غيرها وبخاصة أمم الشرق .

ولقد أنكر الباغون من مؤرخى الاستعمار على هذه الحركة ما فيها من جلال ، وشايعهم نفر من مؤرخى العرب زمناً طويلا عن غفلة أو عن هوى ، بل لقد نسب المغرضون إلى تلك الثورة المجيدة من المساوىء ما أملته عليهم سخائمهم واضطغانهم ؛ وكان أكثر المدرسين وأسفاه فى مدارسنا يغمضون أعينهم كارهين أو مكرهين عن الحق إذ يتناولون تاريخ الثورة العرابية ، اللهم إلا آحاداً كانوا يخافتون بالحق ويتوقعون السوء ، ومنهم من جهر ورضى بالعنت وتحدى الظالمين .

فلما ثرنا ثورتنا المجيدة على الاستعمار والرجعية سنة ١٩٥٢ ،

بادرت وزارة التربية والتعليم فكلفتنى فوضعت كتيباً لطلاب المدارس الثانوية وآخر لتلاميذ المدارس الابتدائية سردت فيهما على إيجازهما تاريخ الثورة العرابية كما ينبغى أن يكتب ، وها أنذا أضع اليوم بين أيدى شبابنا النواهض هذه الصفحات المجيدة من تاريخ تلك الثورة . وإن لهم فيها لمفخرة وعبرة ، وإنها لتذكرة والذكرى تنفع المؤمنين .

ما كانت الثورة العرابية حركة عسكرية تحسب كما كان يحلو للمغرضين أن يصوروها عن عمد أو عن غفلة ، إنما كانت الثورة العرابية إذا أردنا وضعها فى جملة هى التقاء الحركتين الوطنية والعسكرية واندماجهما ، فلما ذهب عرابى إلى عابدين على رأس جنده فى اليوم التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ذهب يحمل إلى الخديو مطالب الجيش ومطالب الامة معاً .

ولقد كانت تشيع فى البلاد فى أواخر حكم إسماعيل حركة وطنية تحررية وقد استيقظ الناس من سباتهم ، وكان رجال الحزب الوطنى يطالبون بالدستور قاعدة للحكم ، ويعملون على منع الأجانب من التدخل فى شئون البلاد ، ولكن رجال هذا الحزب كانوا لايزالون فى المرحلة السرية من جهادهم خوفا من بطش

رياض باشا ومن ورائه توفيق بعد عزل اسماعيل وخوفا من نفود الأجانب ودسائسهم ومكائدهم .

وفى نفس ذلك الوقت الذى كان يتشاور فيه الوطنيون فيما يعملون ، كان السخط قد بلغ أشده فى صفوف الجيش ، على الوزير الشركسى عثمان رفقى وسياسته ، ومن ثم على رياض ووزرائه ، وكان سخط الجند بلا ريب ناحية من ذلك الاستياء العام الذى شمل مصر كلها ، ولذلك فان من ينظر إلى الحركة العسكرية يومئذ على أنها حركة منفصلة إنما يخطىء خطأ كبيراً ، وبخاصة إذا تذكر أن مبعث سخط العسكريين فى جوهره كان تحيز رفقى لبنى جنسه الشراكسة على حساب المصريين الذين كانوا ينعتون بالفلاحين احتقاراً لهم .

وكان مما يقضى به منطق الحوادث أن يلتقى الوطنيون والعسكريون ، فهم أبناء أمة واحدة يجمعهم على الاستياء من العهد كله ما كان يحيق بهم جميعاً من المظالم ، وما كانوا يستشعرونه جميعاً فى أنفسهم من أن مرد ذلك إلى الحكم المطلق ونفوذ الأجانب فى البلاد .

والتقى الوطنيون والعسكريون فكان من التقائهما واتجاههما وجهة واحدة حركة قومية غايتها الدستور والحرية؛ وما يشين هذه

الحركة أن يكون زعيمها أحد العسكريين، وهل كان مما يشين حركة استقلال المستعمرات الامريكية أن انتهت زعامتها إلى وشنجطون أحد القواد الحربيين ؟ كذلك هل كان مما يشين ثورة الانجليز على شارل الأول سنة ١٦٨٨ أن كانت قيادتها لكرمول ؟ ذلك مالا يقوله منصف .

عزل اسماعيل بعد أن جنح إلى الوطنيين ليستعين بهم على تدخل الأجانب ، وتولى قيادة السفينة توفيق ، فما كادت تسير حتى اكتنفتها الرياح الهوج ، وقامت أمامها العقبات من كل جانب ، فهاهم أولاد المصريين تتأجج نيران الحقد فى قلوبهم على الأجانب ، وان يطيقوا بعد اليوم السكوت على تدخلهم فى كل أمر ؛ وهاهى ذى إنجلترا تتحفز وتتربص ، ثم هاهى ذى فرنسا تتحين الفرص لتتغلب على منافستها وهناك تركيا جاءت آخر الأمر تطلب أن تعيد لسلطانها فى مصرسيرته الأولى فتردها الدولتان المتنافستان على عقبها

الشرارة الأولى ـ حادث قصر النيل

أعد الضباط المصريون الأحرار عريضة تتضمن الشكوى من

سياسة عثمان رفقى وزير الجهادية ، كان أهم ما جاء فيها المطالبة بعزل هذا الوزير وكانوا قد اجتمعوا فى بيت أحمد عرابى ، يقول عرابى فى مذكراته « ثم تلوت العريضة على مسامع الحاضرين فوافقوا عليها ، وأمضيتها بختمى وختم على بك فهمى وعبد العال بك حلمى ؛ وبعد ذلك صار ترتيب ما يلزم لحفظ الخديو والعائلة الخديوية والوزراء إذا حدث أى حادث من الضباط الجراكسة مع ترتيب ما يلزم لحفظ البيت وبيوت التجار الأجانب والوطنيين من مطامع الرعاع ؛ وكذلك ما يلزم لحفظنا من بطش الحكومة إذا أرادت الإيقاع بنا وانفض الاجتماع على ذلك » .

وذهب الضباط الثلاثة إلى رياض باشا فى منتصف يناير سنة ١٨٨١ وانهم ليعلمون ما كان ينطوى عليه مثل هذا العمل من جرأة فى ذلك الوقت ، وكان عرابى هو الذى يتكلم باسم زميليه وباسم الضباط جميعاً .

وكان رياض يكره تقديم العرائض مهما يكن من عدالة ما تحتويه لذلك أشد غضبه على هؤلاء الضباط الثلاثة وقال لهم : إن أمر هذه العريضة مهلك ، وهى أشد خطراً من عريضة أحمد فتحى التى نفى بسببها إلى السودان حيث قضى نحبه .

وأجابه عرابى أنهم إنما يطلبون حقاً وأنهم ماداموا مطمئنين إلى حقهم وإلى عدالة رئيس الحكومة فليس ثمة مايخافون منه .

ولبث رياض أياماً يحاول بشتى الوسائل أن يحمل الضباط الثلاثة على أن يسحبوا عريضتهم ولكن ذهبت محاولاته سدى .

ولقد غضب الخديو أشد الغضب من حركة الضباط ، ولبث ينتظر ماذا عسى أن يفعل رياض ؛ وشاعت الشائعات أن رياضاً يمالىء الضباط ، كما قيل إن الخديو يظهر الغضب على الضباط ، ولكنه بينه وبين نفسه يرجو أن تطيح هذه الحركة بوزارة رياض إذ أنه كما أشيع يومئذ كان يريد التخلص من رياض الذى يعتمد عليه الأجانب فى كل شىء .

والحق أن رياضاً كان يخشى الفتنة ويرجو أن يخرج من المأزق بسلام ، ولكنه لما أحس حرج مركزه لم يجد بدأ من استصدار أمر من الخديو بمحاكمة الضباط الثلاثة .

وألف مجلس عسكرى برياسة رفقى نفسه ليحاكم الضباط الثلاثة الأحرار ؛ ولكن ما كاد يشيع الخبر فى الضباط الجند حتى ثارت ثائرتهم ، وكان أكثرهم جرأة وإقداما الضابط الباسل محمد

عبيد بطل التل الكبير فيما بعد ، وكان فى آلاى على فهمى بقشلاق الحرس بعابدين ، فنادى جنده بندائه العسكرى فاحتشدوا فأمرهم بالسير إلى قصر النيل ، فاعترضه خورشيد بسمى الذى عينه رفقى محل على فهمى فى رياسة آلاى الحرس بعابدين، فلم يستمع محمد عبيد إليه ، بل لقد اعتقله فى إحدى حجرات القشلاق ؛ وشهد الخديو تحرك الجند فأرسل إليهم سر ياوره راشد باشا حسنى ، بطل القصاصين فيما بعد ، ليصدهم عن سبيلهم فما استمعوا له ؛ وأرسل توفيق يستدعى محمد عبيد فرفض أن يذهب إليه .

وأحكم عبيد الهجوم على قصر النيل ، ولاذ رفقى بالهرب من إحدى النوافذ فى صورة مخزية وهرب أعضاء محكمته، ومازال عبيد يبحث عن الضباط الثلاثة هو وجنده وراحوا يحطمون الأبواب والنوافذ حتى عثروا عليهم ففك عبيد قيودهم وأطلق سراحهم .

وتحرك آلاى طرة قاصداً قصر النيل، واستمر رجاله فى سيرهم على الرغم من أنهم علموا أن الضباط الثلاثة قد خلى سبيلهم ، وعلى الرغم من أن الخديو أرسل لقائدهم خضر ينهاه عن الحضور ؛ ثم توجه خضر إلى عابدين وقد علم أن عرابياً وصاحبيه قد ساروا إلى هنالك .

وذهب الضباط الثلاثة ومن ورائهم من أخرجوهم من الأسر إلى الخديو يسمعونه شكواهم ؛ ولما رأى الخديو أن الفرق جميعاً تؤيد عرابياً وزميليه ، أخذ بنصيحة البارودى الذى سوف يغدو من زعماء العرابيين فغلب الحكمة على الطيش وأوفد إلى الضباط الثلاثة ومن ظاهرهم من الجند تحت نوافذ مقره يخبرهم بعزل رفقى ، وطلب إليهم أن يختاروا من يحل محله فاختاروا البارودى وأعادهم الخديو إلى مناصبهم ، وتم للأحرار النصر :

يوم عابدين وبطولة الفلاح الزعيم:

أدى حادث قصر النيل إلى ذيوع صيت عرابى على نحو لم يسبق لفلاح قبله فى مصر منذ قرون ، فلقد تمرد هذا الفلاح واجترأ فأبعد عن الوزارة جركسيا قوى الشوكة وأملى رغبته على رئيس الحكومة بل وعلى الخديو إملاء ونال بغيته غلابا ، والحق أن هذا العمل كان يومذاك بالغ الجرأة فقد كان المصريون يدينون بالطاعة للخديو ويهابون سلطانه وجاهه وقد أقامه الخليفة ليطاع ولتعنو له الوجوه ، وما كان يتصور أحد أن يذهب إلى مقره فلاح ومعه فلاحون مثله فيقولون له نحن نريد ونحن نطلب ويظفرون بما أرادوا وينقلبون لم يمسسهم العذاب الأليم . . .

وسرعان مادار اسم ذلك الفلاح الثائر الظافر على كل لسان في القاهرة ، ورن هذا الاسم في القرى فأفاق على رنينه الأعيان والأشياخ الذين ألفوا الخضوع للجراكسة ، وعجب الناس عجباً أن يجرؤ رجل منهم على تحدى الخديو فتعلقوا بهذا الرجل وإن لم يروه

ولئن كان جمال الدين الأفغاني قد أيقظ الغافلين في المدن، فان عرابيا قد بعث بإقدامه أهل القرى من مراقدهم، فقد أوحى اليهم عمله أن من الممكن أن يخرج من بينهم من يشمخ بأنفه على أولئك الذين استنزلوا في مصر الرقاب .

وأقبل عليه العلماء وأهل الرأى ورجال الحزب الوطني وأصبحت داره تغص بالناس من كل طبقة ، فقد خطا الخطوة الأولى ، تلك الخطوة التي لابد منها في كل حركة لينتقل التاريخ من فصل الى فصل .

واستعان به زعماء الحزب الوطني ليتصلوا من رياض وليقيموا الحكم الدستورى فحملوه مطالب الأمة فحملها ووقف وقفته الشهيرة يوم عابدين وهذا هو اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ، أعظم يوم في تاريخ القومية المصرية حتى ذلك الوقت ذلك التاريخ الذى افتتح في شهر مايو سنة ١٨٠٥ حين سار السيد عمر مكرم

والشيخ عبد الله الشرقاوى على رأس جمهور المصريين إلى منزل محمد على فألبسوه شارة الحكم دون إن يستأذنوا السلطان .

وأخلق بهذا اليوم المشهود أن يكون له فى نفوس المصريين مثل ماللبوم الرابع عشر من شهر يوليو فى نفوس الفرنسيين وعلى الذين يعنون بتاريخ الحركة القومية فى مصر أن يعلموا أبناء هذا الشعب أن اليوم الذى نتحدث عنه هو بدء حياتهم أمة لها كرامة .

أخذ عرابى الأمر عدته على خير ما يستعد الرجل اليقظ إلى عواقب الامور ، فكتب إلى وزير الحربية يطلب إليه أن يبلغ الخديو بأن آلايات الجيش جميعاً ستحضر إلى ساحة عابدين فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٩ سبتمبر « لعرض طلبات عادلة تتعلق بإصلاح البلاد وضمان مستقبلها » .

وأرسل عرابى إلى قناصل الدول يقطع عليهم سبيل الدس والتقول فأنبأهم أن لاخوف على أحد من الاجانب فإنها سوف تكون مظاهرة سلمية تقتصر على أحوال البلد الداخلية .

وذعر الخديو وذعر رياض ، وقد دعاه الخديو إليه كما دعا رئيس أركان حرب الجيش ستون باشا ، وأحمد خيرى باشا رئيس ديوانه ليشاورهم فى الأمر : "

ورأوا أن يحاولوا إقناع عرابى بالعدول عن هذه المظاهرة، فأوفد إليه الخديو ياوره طه باشا لطفى؛ ولكن عرابياً رفض أن يعدل عما صمم عليه وأخبره أنه لا يريد «أكثر من مظاهرة عادلة لابد منها لضمان حرية الأمة وسعادتها».

وكان الخديو فى قصر الإسماعيلية، فأرسل يستدعى سير أوكلند كلفن المراقب المالى الإنجليزى، ولما حضر سأله ماذا عسى أن يفعل، قال كلفن يشير إلى ذلك «فنصحت إليه أن يقاوم، فقد أخبرنى رياض باشا أن فى القاهرة فرقتين مواليتين؛ لذلك أشرت على الخديو أن يدعوهما إلى عابدين مع ما يمكن الاعتماد عليه من الحرس الحربى، وأن يضع نفسه على رأسهما، فإذا حضر عرابى قبض عليه بشخصه، فأجابنى أن لدى عرابى بلك المدفعية والفرسان - وربما أطلقوا النار، فأجبت أنهم لن يجرؤوا على ذلك، ومتى توافرت لديه الشجاعة للمقاومة وعرض نفسه شخصياً فإنه يتسنى أن يقضى على المتمردين وإلا فإنه ضائع».

ويذكر بلنت فى كتابه «التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا لمصر» أن كلفن نصح توفيقاً أن يطلق النار على عرابى بيده،

وهذا الإنجليزي يريدها فتنة لا تبقي لا تذر ، وبعدها تقتنص مصر بدعوى إنقاذها من هذه الفتنة .

توجه الخديو إلى عابدين قبل حضور الفرق بزمن ليس بالقصير ومعه كلفن ورياض وستون ، فاستدعى على بك فهمي رئيس الحرس وأشار عليه بالدخول إلى القصر بفرقته والتحصن بالنوافذ العليا ، وقد نصح للجند بقوله « أنتم أولادي وحرسي الخصوصي فلا تتبعوا التعصب الذميم ولا تقتدوا بأعمال الآلايات الأخرى » فأطاع الجند وأخذوا يتأهبون .

وسار الخديو بعد ذلك إلى القلعة يحاول أن يثني آلايها بنفسه عما اعتزم ، فرفض قائد الفرقة فوده حسن فأمسك الخديو بتلابيبه فثار الجند في وجهه ، ثم وضع العساكر الأسنة في بنادقهم بأمر من هذا القائد وتجمهر واحول الخديو فصاح بالقائد « أفسح لنا الطريق يا بكباشي » .

وذهب الخديو إلى العباسية حيث كان آلاي عرابي ، ولكنه علم هناك أن عرابياً سار منذ ساعة على رأس جنده ومعهم المدافع بطريق الحسينية إلى عابدين ، فعاد توفيق إلى قصره ،

وفى عصر ذلك اليوم المشهود التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ تحرك الجيش يقوده ضباطه الأحرار قاصداً عابدين ، فخطت الثورة الوليدة أجرأ خطواتها وأبعدها أثراً فى تطور حوادث ذلك العهد .

وتلاقى عرابى فى ميدان عابدين بالآلايات الأخرى بقيادة أحمد بك عبد الغفار وعبد العال بك حلمى وغيرهما من أنصاره وكان عدد المحتشدين نحو أربعة آلاف ومعهم المدفعية ، وأرسل عرابى يستدعى على بك فهمى من داخل القصر وعاتبه فرد بقوله « إن السياسة خداع » ثم ذهب فعاد بفرقته ، وانضم إلى الجيش فأصبح القصر خالياً من كل عناصر المقاومة .

وتجمع وراء صفوف الجيش آلاف من أهل القاهرة الذين أخذتهم الدهشة لهذا المنظر ، واشرأبت أعناق الشعب التى طالما ألفت الذلة وتطلع من فوق أكتاف الجند ، ومن خلال صفوف الفرسان لينظر ماذا يكون فى هذا الموقف الرهيب ؛ واسم عرابى يجرى على الألسن فى حين تدور الأبصار باحثة عن موضعه ، وهو على ظهر جواده أمام جنده يتأهب لمقدم الخديو ليسمعه كلمة مصر كلمة الشعب الذى ألبس جده بالأمس الكرك والقفطان

سارفى الحكم دون الرجوع إلى السلطان: وما أعظم كلمة مصر ينطق بها فلاح من أعماق الوادى نبت ونما ثراه.

وصل الخديو إلى عابدين ودخل السراى من الباب الخلفى، ويقول كلفن عن نفسه إنه قفز من العربة وأشار على الخديو أن يسير من فوره إلى الميدان، ففعل توفيق ذلك، وسار إلى حيث اجتمع الجنود وراءه ستون باشا وأربعة أو خمسة من الضباط الوطنيين وواحد أو اثنان من الضباط الأوربيين، ويذكر عرابى أنه كان معه كذلك مستر كوكس قنصـــل انجلترا بالأسكندرية والجنرال جولد سمث مراقب الدائرة السنية .

وتقدم الخديو، فأشار عليه كلفن أن يأمر عرابياً بتسليم سيفه متى دنا منه، وأن يأمره بالانصراف ثم يطوف على الفرق فيأمرها هذا الأمر.

وسار عرابى على ظهر جواده حتى إذا اقترب من الخديو صاح به الخديو قائلا : « إنزل » . فوثب عرابى من فوق جواده ومشى نحو الخديو ومن حوله نحو خمسين ضابطا، فأدى التحية العسكرية، وأشار الخديو إلى سيفه فأسرع عرابى بإغماده .

الموقف رهيب بالغ الرهبة! فى هذا الجانب حيث يقف

الجند نرى مصر التى أيقظتها المحن والفواجع تتمثل فى هذا الجندى الفلاح تجرى على لسانه كلمتها فى غير تلعثم أو التواء ، وفى الجانب الآخر صاحب السلطان الموروث تغضبه هذه اليقظة وتذهله مع أنه رآها منذ بدايتها ، ورأى أباه يوسع لها صدره ويخفض لها جناحه مضطراً .

هنا الحرية الوليدة والديموقراطية الجديدة ؛ وهناك التقاليد العتيدة والرجعية العنيدة ؛ ومن وراء ذلك الثعالب وبنات آوى تتمسكن لتتمكن وتتربص لتنقض ! . .

والتاريخ شاهد يثبت للقومية المصرية صفحة مجيدة ومظهراً من أجل مظاهرها .

همس كلفن فى أذن الخديو « هذه ساعتك » فأجاب الخديو « نحن بين أربع نيران » فقال كلفن « كن شجاعاً » . . فتهامس الخديو وأحد الضباط الوطنيين ، ثم التفت إلى كلفن قائلا « ماذا عسى أن أفعل ؟ نحن بين أربع نيران .. إنهم يقتلوننا » .

ويحسن أن نورد ماحدث بعد ذلك على لسان عرابى ، وهو لايخرج عن روايات هذا الحادث على كثرتها . قال : « ثم صاح بمن خلفى من الضباط أن اغمدوا سيوفكم ، وعودوا إلى مكانكم

فلم يفعلوا وظلوا وقوفاً خلفى ودم الوطنية يغلى فى مراجل قلوبهم والتعصب ملء جوارحهم ، ولما وقفت بين يديه مشيراً بالسلام خاطبنى بقوله « ما أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟ » فأجبته بقولى « جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة فقال « وماهى هذه الطلبات ؟ » فقلت « هى إسقاط الوزارة المستبدة وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربى ؛ وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها » فقال « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وماأنتم إلا عبيد إحساناتنا » فقلت « لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولانستعبد بعد اليوم » .

تلفت الخديو بعد ذلك إلى كلفن قائلا « أسمعت مايقول ؟ » فأشار عليه هذا أن يعود إلى القصر إذ لا يجمل أن يزيد الأمر بينه وبين عرابى عن هذا الحد ، فانصرف الخديو وبقى الجيش فى مكانه لا يتزحزح .

وأقبل كوكس قنصل انجلترا فى الاسكندرية ، وكان ينوب

عن القنصل العام السير ادوارد مالت لغيابه ، اقبل هذا ومعه ترجمان يناقش عرابياً فى غلظة مقصودة ، وكان هذا الانجليزى كرجال الاستعمار جميعاً ممن يدسون أنوفهم فى كل شئ فى كثير من الدهاء والحيلة ، وكان مما وجهه إلى عرابى قوله أن لاحق له فى أن يطلب بالمجلس النيابى إسقاط الوزارة ، فذلك من شأن الأمة ولادخل للجيش فيها ، وأما عن زيادة الجيش فمالية البلاد لا تسمح بذلك .

ورد عرابى بقوله : إن الأمة أنابت الجيش عنها ، ثم وجه نظر محدثه إلى الجموع المتراصة خلف الجند قائلا هذه هى الأمة وما الجيش إلا جزء منها ثم قال « اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن إخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التى ننفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة ؛ وانظر إلى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر فهم الأهالى الذين أنابونا عنهم فى طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين أننا لا نتنازل عن طلباتنا ، ولانبرح هذا المكان مالم تنفذ » .

قال القنصل : علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها .

قال عرابى : كيف يكون ذلك ؟ ومن الذى يعارضنا فى أموال داخليتنا ؟ فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا .

قال القنصل : وأين هى قوتكم التى ستدافع بها .

قال عرابى: عند الاقتضاء ، يمكن أن نحشد مليوناً من العساكر يدافعون عن بلادهم ويسمعون قولى ويلبون إشارتى .

ويسأل كوكش عرابيا سؤالا يتجلى فيه خبثه فقال وماذا تفعل إذا لم تجب إلى طلبك ؟ .

فانظر إلى رد هذا الجندى فى هذا الموقف الذى تخف فى مثله أحلام الرجال ، والذى تزدهى القوة فيه القلوب فتسلب ذوى العقول اتزان عقولهم ؛ أنظر إلى عرابى فى موقف الثورة يقول له «أقول كلمة أخرى» فقال القنصل «وما هى؟» قال عرابى «لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط» .

وأخذ كوكش يروح ويغدو بين عرابى والخديو حتى جاءه آخر الأمر ينبئه بقبول الخديو إسقاط الوزارة القائمة وأن سموه سينظر فى بقية المطالب فلا بد فى بعضها من مشاورة السلطان .

وعرض الخديو على الجيش اسم حيدر باشا لرياسة الوزارة ولكنهم رفضوه ، وجرى على الألسن اسم شريف بطل الدستور ونصيره فصار كوكش بعد حين يعلن إلى عرابى قبول الخديو تعيين شريف فقوبل ذلك بالهتاف بحياة الخديو ؛ والتمس عرابى ونفر من زملائه الإذن على الخديو فلما مثلوا بين يديه أخذ عرابى يعبر عن ولائه وولاء الجيش ، وذكر الخديو أنه « وافق على تلك الطلبات بنية صافية ثم انصرف الجيش بعد ذلك فى هدوء . كل فرقة إلى مقرها ..

هذا هو يوم عابدين وهو لعمر الحق صفحة مجيدة رائعة فى تاريخ حركتنا القومية ، فلقد تم لعرابى وأنصاره ما أرادوا فى غير عنف يشوه حركتهم أو ينقص من جلالها كما عسى أن يحدث فى أشباهها من الحركات .

لقد كان القصر خلوا من كل مقاومة فروعيت حرمته أحسن مراعاة ، فإذا أضفت إلى ذلك ما كان يدبر فى خبث من الدسائس فى ذلك الوقت الرهيب ، ورأيت ذلك الجندى الثائر وقد ملك زمام نفسه فترجل وأدى التحية وأغمد سيفه ازددت لا ريب إكباراً لما حدث فى ذلك اليوم فلقد كانت أية إشارة يساء فهمها

أو أية كلمة نابية كفيلة بإسالة الدماء فى تلك الساعة ؛ قال عرابى فيما بعد « لو حاول الخديو قتلى لأطلقت النار عليه »

وينبغى ألا ننس ما اتخذه عرابى من الحيطة قبل ذهابه وذلك باتصاله بالقناصل والخديو ، فقد كان فى ذلك حكيما موفقاً لايدع مسلكه محلا لغميزة أو يجيء سبباً للملامة ..

خرجت مصر فى ذلك اليوم المشهود سالمة آمنة ظافرة يقول بلنت « إن ثلاثة الشهور التى أعقبت هذا الحادث لهى من الوجهة السياسية أسعد الأيام التى شهدتها مصر ولقد ساعدنى الحظ بمشاهدة ما جرى فيها بعينى رأسى ... لقد سرت فى مصر رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفات النيل منذ قرون فكان الناس فى شوارع القاهرة حتى الغرباء منهم يستوقف بعضهم البعض يتعانقون وهم جذلون مستبشرون بعهد الحرية العظيم الذى طلع عليهم على حين غفلة طلوع الفجر إثر ليلة مخيفة حالكة الظلام . وقد أذاعت الصحف هذه الأنباء فى سرعة وقد تحررت من كثير من قيودها تحت رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة تحرراً لم تصل إلى مثله من قبل واستطاع الناس آخر الأمر أن يلتقوا ويتحادثوا غير خائفين فى كل جهة من جهات الأقاليم .

مافتىء الماكرون الباغون يعملون منذ يوم عابدين على إثارة الخلاف بين الخديو المتمسك بالحكم المطلق وبين زعماء الشعب المتمسكين بالحكم الدستورى ، لتحقيق نياتهم المبيتة من قبل ، ولم يشأ الخديو أن يتنازل عن الاستبداد فركن إلى الأجانب ليتخلص من الوطنيين، ونشط هؤلاء الثعالب فى العمل على تفاقم الخلاف حتى سنحت لهم الفرصة فاعتدوا عدوانهم الفاجر الغاشم على البلاد بعد أن دبروا مذبحة الاسكندرية المعروفة . .

وهذا هو العدوان الذى لانكاد نجد فى تاريخ الحروب أقبح منه أو أشد منه فجوراً ، إلا أن يكون ذلك هو عدوان هؤلاء الباغين الآثمين على مدينة بورسعيد فيما بعد . .

هذا العدوان الفاجر هو إطلاق المدافع من الأسطول الانجليزى على مدينة الاسكندرية فى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ؛ وإنه وكمثيله عدوان الانجليز على بورسعيد ، لتاريخ خليق بأبناء هذا الوادى وبنى الشرق جميعاً أن يذكروه ، كلما تحدث متحدث عن الضمير البريطانى وعن الشرف البريطانى وعن الحضارة الاوربية بوجه عام .

وإنه لثأر جذوره بكل أب وبكل أم في هذا الوادي أن يتحدثوا به إلى أبنائهم وبناتهم كلما ذكر الاستعمار وآثام الاستعمار . .
تذرع الأدميرال سير بوشامب سيمور لإرسال صواعقه على الإسكندرية أو تذرعت الحكومة البريطانية بأنها ترى في تحصين شواطىء الإسكندرية خطراً يهدد الأسطول، وأخذ سيمور يرسل إنذاراته إلى قائد حامية المدينة طلبه عصمت .

وفي صباح اليوم العاشر من يوليو تلقى طلبه باشا إنذاراً نهائياً هذا نصه « لي الشرف أن أخطر سعادتكم أنه لما كانت أعمال الاستعدادات العدائية الموجهة ضد الأسطول الذي أتولى قيادته آخذة في الازدياد طول نهار أمس في حصون صالح وقايتباي والسلسلة فقد عقدت العزم أن أفقد غداً الحالي عند شروق الشمس ما أعربت لكم عنه من عمل في كتابي المؤرخ يوم ٦ الحالي، وذلك إن لم تسلموا إلي في الحال قبل هذه الساعة البطاريات الموضوعة في شبه جزيرة رأس التين وعلى شاطىء ميناء الإسكندرية الجنوبي بقصد تجريدها من السلاح ».

هذه هي قصة النزاع بين بوارج الأسطول الانجليزي وقلاع الشواطيء بالاسكندرية أو أقصوصة الذئب والحمل في صورتها

الجديدة . ولا يستطيع المرء أن يتصور كيف يكون تحصين أمة شواطئها تلقاء سفن أجنبية تتهددها عملا عدائياً يسوغ الشر والاعتداء؟ إن مثل ذلك كمثل لص أراد أن يقتحم داراً وسلاحه فى يده والشر ملء وجهه ، فإذا تناول صاحب الدار ما يدفع به العداون عن نفسه مسوغاً للص أن يقتله ويأخذ متاعه وداره !

وكيف يجوز فى عقل أن تكون قلاع الاسكندرية هى المعتدية على بوارج الأسطول والقلاع ثابتة لم تنتقل إليها لتضربها وإنما جاءت السفن تهدد المدينة ؟ يقول روثستين فى كتابه « المسألة المصرية » مصيف عمل إنجلترا « إن عملها هذا كان يخشى منه عليها ولكنه أفلح كما يفلح كل عمل وفتح تقوم به دولة شديدة البطش والسلطان وقال أيضاً « والحق أنه لا شئ أحط قيمة ولا أصرح نفاقاً من الحجة التى شرع بها الانجليز فى ضرب الاسكندرية » .

رفضت مصر الانذارات وكان لابد أن ترفض فأطلق الأدميرال السير بوشامب سيمور أولى قذائفه على المدينة فى الساعة السابعة من صباح اليوم المشئوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ باسم الدفاع المشروع عن النفس ، والدنيا كلها تشهد هذا البغى الأكبر ، وليس فيها

يومذاك دولة يتأثم ضميرها مما تصبه المدنية الانجليزية على الحركة القومية القائمة على الدستور والسلم فى مصر !

كانت حصون الشاطىء تمتد من ناحية العجمى فى الغرب إلى أبو قير فى الشرق ، وكان عددها نحو عشرين حصناً أو طابية ، ويدخل فى ذلك اثنان فى داخل المدينة هما كوم الناضورة وكوم الدكة .

وإذا استثنينا الحصنين الأخيرين وهما من منشآت نابليون ، وقلعة قايتباى ، وهى ترجع إلى القرن الخامس عشر ، كانت بقية الحصون من منشآت محمد على ، وقد ظلت على حالها منذ ذلك الوقت إلا بعض إصلاحات أدخلت عليها فى عهد إسماعيل ، ولولا أن اسماعيل وضع فيها تسعة وأربعين مدفعاً من طراز آرمسترنج ماصلح فيها للدفاع عن شىء .

وكان الأسطول البريطانى مكوناً من ثمانى مدرعات كبيرة وخمس مدفعيات وسفينة للطوربيد ، وأخرى لأعمال الكشف ، وكانت مدافع الأسطول وعددها سبعاً وسبعين من النوع الضخم القوى من طراز آرمسترنج .

وكان آلاى طوبجية السواحل يتألف حسب الاحصاء الرسمى

من اثنين وستين وسبعمائة وألف رجل وكان يقودهم الأميرالاى اسماعيل بك صبرى ، ولكنهم كما ذكر عرابي فى مذكراته كانوا لايزيدون يوم الاعتداء عن سبعمائة .

ووزع صبرى ضباطه على الحصون استعداداً للمعركة ؛ وكان يعاونه وكيله محمد بك نسيم الذى وكل إليه صبرى الدفاع عن الحصون الغربية . ووزع عرابي حامية المدينة وراء الحصون من قلعة العجمى إلى برج السلسلة وعهد إلى أورطتين من الفرسان بالمراسلة بين الحصون .

أجابت الحصون بعد خمس دقائق من ابتداء الضرب ، وقد صمم رجالها على أن يبذلوا غاية جهدهم مهما بلغ من قوة عددهم واستمات هذا الآلاى ، آلاى السواحل فى الدفاع وأبدى حماسة وطنية شهد بها كثير من الأجانب وفى مقدمتهم جون يونيه السويسرى ، وذلك على الرغم من عنف المدافع الانجليزية وشدة فتكها وعظم تدميرها ، ومهارة السفن الانجليزية فى الابتعاد والاقتراب ودفاع بعضها عن بعض وامتصاصها بدخان كثيف يغطيها أثناء الضرب وشباك قوية من الفولاذ كانت ترد عنها قذائف الحصون .

أما مدافع الشواطىء فوصفها عرابي بقوله : « من المؤسف أن مقذوفات المدافع القديمة كانت لا تصل إلى المراكب الانجليزية ومدافع الآرمسترنج لم يكن لها المساطر التي بها تعرف المسافات وتحكم الإصابة بواسطتها ، اللهم إلا مسطرة واحدة كانت فى محل التعليم بالعباسية استحضرت ليلا وسلمت إلى الشهم المقـــدام سيف النصر بك قومندان طابية الفنار ، فكان يطلق المدافع بنفسه ، وينتقل من محل إلى آخر ويحكم الإصابة بواسطة المسطرة المذكورة ، فكان معظم الدروع التي تعطلت من جراء المقذوفات التي أحكم إطلاقها ، ولو كانت مدافع الآرمسترنج كلها ذات مساطر لأمكنها تعطيـــل الدوارع الانجليزية بما تقذفه من المقذوفات الصائبة » .

وقد أجابت بطاريات رأس التين وطابية الفنار السفن بنار شديدة ، فعطلت السفينة مونارك وقتاً طويلا ، وأحكمت مدافع طابية المكس مقذوفاتها على السفينة انفنسيبل سفينة الأدميرال ، وثابرت على ذلك طويلا ! وقاتلت قلعة العجمى قتالا شديداً ، واستبسل اسماعيل بك صبرى فى طابيـة أطه ، فأتعب السفن التى كانت تصب نارها على تلك الطابية

قال جون تينيه يصف ذلك الجهاد المجيد « وكان رجال المدفعية يطلقون قذائفها فى إحكام وحماسة أدهشت أعداءهم الذين ظل عملهم الجهنمى متصلا عشر ساعات ونصف ساعة دون أن يستطيعوا المبالاة بالنصر الحاسم ، وكانت تغطى المدينة أثناء الضرب طبقات من الغبار والدخان وكان قصف المدافع يصم الآذان .

وكنا حين تبدد الرياح سحب الدخان نشاهد قذائف المدافع المصرية تسقط فى البحر فى منتصف المسافة بينها وبين سفن الأسطول ؛ وقد أدى رماة مدافع آرمسترنج عملهم على خير مايرجى وذلك على الرغم من أن مدافعهم كانت أقل عياراً من مثيلاتها من المدافع الانجليزية ، وقد أصابوا سبع مدرعات إصابات بعضها خطير وبعضها ضئيل .

وكانت سفن الأسطول تجرى هاهنا وهنا ترمى قذائفها وهى على مسافة بعيدة فتصيب الشاطىء ولا تستهدف للخطر ، وكانت كل قذيفة تزيد على المتر طولا ، وسقطت أول هذه القذائف الضخمة فى قلعة رأس التين دون أن تنفجر ، فنظر إليها الجند والضباط ، وقال أحد الضباط مشيراً إليها : « هلم أيها الاخوان لتشهدوا مثلا من إنسانية انجلترا » . وقد أدى عبارته بلهجة تنم

عن الذكاء والسخرية ، وضحك إخوانه جميعاً ، وواجهوا ما يلقى عليهم باسمين .

وكانت السفن الإنجليزية تسير مشى مشى فى تؤدة وروعة تجاه كل طابية وتطلق عليها قذائفها حتى تدكها دكا ، وبعد ذلك تقترب منها شيئاً فشيئاً ، وتنسف ماانقلب عن موضعه من المدافع بفعل قذائف الأسطول ، ثم تفتك بالرجال فتكاذريعاً بنار المترليوزات المركبة فى ساريات البوارج .

ولايسعنا إلاأن نعترف بأنها كانت مجزرة وحشية لاموجب لها ولامسوغ ، ولم يكن الباعث عليها إلا الشهوة الوحشية المتعطشة للدماء ، ، وكنت أتوق إلى أن أسأل أولئك الذين كانوا يضربون ويطلقون مترليوزاتهم هل يستطيعون حين يعودون الى بلادهم ويتحلقون حول موائد الشاى فى بيوتهم أن يتحدثوا إلى ذويهم عما فعلته تلك المجازر البشرية من الفتك والتخريب ؟ إنى انى شك من هذا ، فأية إهانة لحقت الامة البريطانية حتى تثأر من مصر على هذه الصورة الفظيعة ؟

ومع هذا فما كان أروع منظر الرماة المصريين الذين كانوا خلف مدافعهم المكشوفة ، كأنهم فى استعراض حربى لايخافون الموت

الذى يحيط بهم ، وكانت معظم الحصون بلا حواجز تقيها ولا متاريس ومع ذلك فقد كنا نلمح هؤلاء البواسل من أبناء النيل خلال الدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الموت قد بعثوا ليناضلوا العدو ويواجهوا نيران مدافعه، وكان القادة يزورون الحصون ويستحثون الرجال، ولقد أدى الجميع واجبهم رجالا ونساء كباراً وصغاراً ، ولم تكن ثمة أوسمة أو مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم ، وإنما كانت تثير الحماسة فى نفوسهم عاطفة الوطنية والثورة على ما استهدفوا له من فظائع ، وهم فى مواقفهم البواسل المجهولون لم يفكر أحد فيما تحملوا من آلام .

وكان الجرحى ينقلون إلى المستشفى على عربات النقل ، وكان مما يؤلم النفوس حقا منظر تلك العربات تقل الواحدة عشرين أو ثلاثين قتيلا من الأهالى أو الجند وقد شدوا بالحبال على ألواح من الخشب فوق العربات والدماء تقطر من أجسامهم .

وبدأ نقل جثث القتلى منذ الساعة العاشرة صباحا ، وظلت عربات النقل حتى هبط الليل تحمل الجثث من الحصون وتخترق المدينة إلى شارع محطة الرمل حيث المستشفى العسكرى ، وهناك كانت تدفن بعد المعاينة بغير احتفال فى المقابر المجاورة للمستشفى .

استمر الضرب من الجانبين حتى الساعة الحادية عشر وسكتت السفن قليلا ثم استأنفت الضرب وجاوبتها الحصون حتى الساعة الثانية بعد الظهر واستأنف الأسطول الضرب بعد الساعة الثانية ، واستمر يرسل قذائفه الهائلة حتى منتصف الساعة السادسة .

وقد كتب القس لويس صابونجي إلى مستر بلنت يصف بطولة حامية الشواطىء فقال « كنت على ظهر السفينة سعيد على مقربة من الأسطول الانجليزى ومن بين ١١٧٠ شخصا كانوا معى وشهدوا الضرب كنت أنا وحدى الذى رجوت حسن الحظ والنجاح لعرابى وأنصاره ، وعندما انطلقت أول طلقة تموجت فى الهواء القبعات والمناديل والأيدى مشفوعة بالهتاف وعلامات الرضاء ، وكان الرجال والنساء وفيهم القساوسة على اختلاف درجاتهم متهللين جذلين يتنبأون بسقوط الحصون فى ساعتين ولكن شعورهم بالخيبة ما لبث أن ظهر ، الساعة الآن الواحدة والنصف بعد الظهر ولم تنقطع النيران من الجانبين وإن الدفاع يعد حتى الآن فائقا ، ولا يمكن لأحد أن يقول الآن ماعسى أن تكون النتيجة .

استشهد من رجال الطوابى نحو مائة رجل ، كما استشهد هناك امرأتان من المتطوعات كانتا تعينان الجرحى ؛ وبلغ عدد الضحايا فى المدينة نحو ألفين غير من جرحوا .

أما السفن الانجليزية فقد أصيبت أنفنسبل ثلاث عشرة إصابة عطلت ست منها الأجزاء غير المدرعة من السفينة وجرحت واحدة ست رجال وأصيبت السفينة سلطان بثلاث وعشرين ضربة وأتلفت سواريها ومدخنتها ، واخترقت قذيفتان جدرانها غير المدرعة ، وتعطلت الزوارق الملحقة بأنفلكسيبل ، واخترقت قذيفتان درع سوبرب ومدخنتها وقد أصيبت عشر مرات ، وعطل فى بنلوب أحد مدافعها ، ولحق ضرر خفيف بألكسندرة على الرغم من أنها أصيبت ثلاثين مرة وعطل مدفعان من مدافعها .

وهكذا وقف المصريون وإن حاقت بهم الهزيمة موقف الدفاع والكرامة أمام عدو يتفوق عليهم فى السلاح والعتاد ؛ وليس يمارى أحد فى أنهم فعلوا فعل القلة تحارب من تكاثروا عليها حتى تهلك أو ينثلم سلاحها ؛ وتأبى أن تفر مهما بلغ ما يحيط بها من هول وفى هذا أبلغ معانى البطولة .

أما أهل المدينة ، فإنه لما يذكر فى مواطن الفخر ما أظهروه من البسالة والحمية وبخاصة النساء ؛ أشار إلى ذلك عرابى فى مذكراته فقال « وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم الماء وحمل

الجرحى وتضميد جراحهم ونقلهم إلى المستشفيات ،

وقال الشيخ محمد عبده « تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالى الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنون بلعن الأميرال ومن أرسله »

وقال محمود فهمى باشا رئيس أركان حرب الجيش «ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبه وطوابى باب العرب ، وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول .

جهاد الأمة المصرية وشعورها الوطنى العظيم

انسحبت حامية المدينة وتحصنت فى كفر الدوار استعداداً للحرب ضد الغزاة الآثمين وانحاز إليهم الخديو فكان أول الخائنين .

ولم يكن أمام مصر إلا أن تختار إحدى سبيلين . التسليم بالاحتلال وما يقضى به على نهضتنا القومية الحرة وقبول هذه

المزلة طائعة مختارة أو الحرب التى تبذل فيها الأموال والأنفس والتى تنتهى إما إلى نصر يتحقق به كل شىء ، وإما إلى هزيمة إن ذهبت بكل شىء فلن تذهب بالشرف والكرامة .. ولقد اختارت مصر السبل الثانية وما كان لها أن تختار غيرها .

واستجابت الأمة لداعى الجهاد ، وجاءت فى سخاء بما تطلبه الجهاد من مال وعتاد ورجال ؛ وقل أن نجد فى تاريخ الحروب حربا كهذه الحرب فلم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة إذ استولى الانجليز على المـــال وأنزلوا خزائنه إلى السفن ، فقامت الحرب على ما بذل الشعب طائعاً من أقواته وأمواله ودمه .

وإن المرء ليملكه شعور الإعجاب حقاً والفخار تلقاء هذه الصفحة المشرقة التى هى بحق أنصع صفحة فى تاريخ هذه الحرب ، والتى نسوقها دليلا على قوة روح هذه الأمة العظيمة وكرم عنصرها وأن ثورتها كانت منبعثة من أعماق القرى ، وأنها هزت مشاعر بنيها هزاً ونفضت عنهم سبات القرون الطويلة .

فى يوم ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ اجتمع فى وزارة الداخلية بالقاهرة مؤتمر وطنى عام شهده نحو خمسمائة من وجوه الأمة كما شهده كبار علماء الأزهر وفى مقدمتهم الشيخ الإمبابى شيخ الإسلام

وقاضى قضاة مصر والمفتى ونقيب الأشراف ، وكان من أبرز الحاضرين من العلماء الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد عليش والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى . وشهده كذلك بطريق الأقباط ووكلاء البطريكخانات وحاخام اليهود . وشهده وكلاء الوزارات والنواب وعدد كبير من الباشوات وكبار الضباط وكبار الموظفين والقضاه ومديرو الأقاليم . ومن الأهالى شهده كبار التجار والأعيان ورؤساء العشائر من الأقاليم الذين مثلوا الأسر المصرية الكبرى فيه ، وبذلك كانت مصر كلها ممثلة فى هذا المؤتمر الوطنى العظيم . وفى ذلك أبلغ دليل على شعبية هذه الثورة وأنها لم تكن حركة عسكرية فحسب كما يدعى المبطلون .

وتولى سكرتارية المؤتمر الشيخ محمد عبده . وقد تليت فى هذا الاجتماع فتوى خطيرة من المشايخ ، العدوى وعليش والخلفاوى مؤداها أن الخديو بانحيازه إلى العدو المحارب لبلاده « يعد مارقا عن الدين ... ورأينا وجوب توقيف أوامر الخديو وما يصدر من نظارة الموجودين معه كائنة ما كانت لأى جهة من الجهات وعدم تنفيذها حيث أن الخديو خرج على قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف » .

وتولى شئون الإدارة العامة فى البلاد مجلس عرفى برياسة يعقوب سامى باشا ويتألف من وكلاء الوزارات ، وقد أدى المجلس واجبه على خير ما يرجى من الهمة والوطنية ، وتصادف أن كان الفيضان عاليا ، فبذل المجلس همة عالية فى حراسة جسور النيل حتى لا يدهم البلاد خطر الغرق فى وقت الحرب ، وكان لأهالى البلاد فى ذلك همة عظيمة ونخوة وطنية قليلة النظير .

وتجلت حماسة الأمة كذلك للثورة والحرب فيما ألقاه نفر من أبنائها من الخطب وما كتبوه من المقالات وما نظموه من الشعر لتعبئة الشعور القومى وإن الذى يقرأ ذلك ليوقن أنه حيال حركة صادقة جديرة بكل ثناء وإعجاب ، ولو أتسع المجال لأوردنا طائفة منها ، فلنكتف بذكر أسماء نفر من أشهر أصحابها ، وفى مقدمة هؤلاء عبد الله نديم خطيب الثورة وكاتبها الأشهر وصاحب جريدة الطائف ترجمان الثورة ومرآتها ، والشيخ محمد عبده أحد أفذاذ الحركة الاعلام ، والأستاذ الشاعر الشيخ أحمد عبد الغنى من علماء الأزهر ، والشيخ محمد أبو الفضل خطيب مسجد الحنفى (شيخ الأزهر فيما بعد) والملازم على أفندى غالب والشيخ أحمد سيف البارى ، والشيخ على المليجى وزميله الشيخ

محمود إبراهيم خطيب أسيوط والشيخ حميدة الدمنهورى ، هذا إلى عشرات وغيرهم من الخطباء والشعراء والكرام الكاتبين .

أما عن تبرعات الأمة فقد جاءت برهانا كما أسلفنا على عراقتها فى المجد والكرم والوطنية قال الشيخ محمد عبده فى هذا الصدد وقد تبرع الأمراء والأعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية حتى النساء ، بالخيل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش ، وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة غيرة وحمية فى جمع الميرة المطلوبة وحشد المتطوعين للجيش ولسائر الأشغال العسكرية . وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين إلى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الانجليز وقد شمل هذا الحماس الأقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم ، وكان شبان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلا يتغنون بمديح عرابى ، وفى أى اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا » .

وقال نينيه « كانت ترد كل يوم إلى كفر الدوار إعانات الشعب من المال والقمح والشعير والبقول والسمن والخضر والفاكهة والخيل والماشية وقد أبرى أعيان الوجهين القبلى والبحرى

شهامة عظيمة فى إمداد الجيش ، وقد بدا من الأهالى ما يدل على شديد تعلقهم بالدفاع عن وطنهم وظهروا مظهر الشرف » .

وقال عرابى « قامت هـذه الحرب الشعواء وليس فى خزانة الحكومة درهم لأن المراقب الانجليزى المستر كلفن أخذ الاموال من خزانة المالية وأنزلها فى الدونمة الانجليزية قبل إعلان الحرب بأيام . وبناء على ذلك تحرر من المجلس العام إلى المديريات بتحصيل الاموال من الأهالى عن كل فدان عشرة قروش ؛ ومن شاء أن يتبرع بشىء إعانة لإخوانهم المجاهدين فى سبيل المدافعة عن وطنهم وحفظ كرامتهم وشرفهم يقبل منه مع إعلان الشكر . ولما أعلن ذلك جادت الأمة على اختلاف مذاهبها ونحلها بالمال والغلال والخيل والجمال والابقار والجواميس والأغنام والفاكهة والخضراوات ، حتى حطب الحريق ؛ ومن الاهالى من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشى ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه ، وبالجملة فإن الأمة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والغيرة مالم يسبق له عهد فى القرون الخالية ؛ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزى الأمة خير الجزاء وأن يرد لها حريتها واستقلالها » .

في الميدان الغربي : معارك كفر الدوار :

وقف الجيش المصري عند كفر الدوار ، ويعزو بلنت اختيار هذا الموقع إلى محمود فهمي باشا ويصف المكان في قوله وكان الفضل في اختيار هذا المكان المنيع الواقع على الخط الحديدي إلى القاهرة والذي تكتنفه من الجهتين بحيرة مريوط الضحلة وبعض المناقع راجعا فيما أعتقد إلى مهارة محمود فهمي الهندسية ولم يكن في وسع عرابي أن يتخذ خيراً من هذا المكان مستقر المعسكر الجديد ؛ لقد كان بعيداً البعد الكافي عن مدافع سيمور ، ولم يكن يستطيع جيش مهاجم أن يبلغه إلا عن الطريق الضيق الذي مهده خط سكة الحديد ، وبهذا لم يكن يمكن اقتحامه من جهة الاسكندرية في حين أنه من جهة الأرض كانت الدلتا مفتوحة للجيش بإمداداتها التي لا تكل ، وكان الجيش حر الاتصال بالقاهرة »

وقال عرابي « وأنشأنا في كفر الدوار استحكاما من ترعة المحمودية إلى الملاحة وحفر خندق عرضه أربعة أمتار ، وجعل خط الدفاع في المقدمة عند عزبة خورشيد على طـــول الخط من المحمودية إلى الملاحة ، وجعل ماوراء هذا الخط من التلال والمرتفعات مواقع حصينة ركبت فيها مدافع كروب ، وكذلك

التلال الكائنة بين المحمودية وسد أبو قير . . وقدتم إجراءهذه الأعمال الدفاعية بمعرفة المهندس الحربى العظيم محمود باشا فهمى ورجال الهندسة الحربيين ومساعدة خمسة آلاف رجل من الأهالى من مديريات البحيرة والغربية والمنوفية .

وكان عدد الجنود النظامية فى كفر الدوار يتراوح بين ثمانية وعشرة آلاف جندى ومعهم نحو ثمانين مدفعاً من مدافع كروب؛ وكان يساعد الجيش آلاف من المتطوعين عظمت حماستهم وقويت روحهم ، وكانت القيادة لطلبه عصمت تحت إمرة عرابى .

وكان أول عمل من جانب المصريين أن سد محمود باشا فهمى ترعة المحمودية بالقرب من كنج عثمان ووضع المدافع على السد لحمايته ؛ وكان القصد من ذلك منع المياه العذبة عن الاسكندرية ، ولقد انزعج الإنجليز من هذا العمل وأخذتهم منه حيرة .

وبدأ الانجليز الهجوم يوم ٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ فزحفوا من الرمل فى نحو ألفى مقاتل من المشاة يقودهم الجنرال أليسون ، وتصدى لهم المصريون فى أورطتين فى مثل عددهم بقيادة البكباشين أحمد البيار ومصطفى حسان وأوقفوا زحفهم . . . ثم جاء خورشيد باشا طاهر على رأس ثلاث بلوكات من الفرسان ، وحمل المصريون

على الانجليز حملة قوية،وبعد ثلاث ساعات ونصف اضطر الانجليز إلى التقهقر وفروا إلى الرمل مهزومين .

وعاد الانجليز إلى الهجوم فى اليوم التالى وقد أعدوا له عدة قوية ، فتقدمت ميمنتهم بطريق السكة الحديد من القبارى ، وميسرتهم على ضفة الترعة المحمودية من الرمل ، وتحرك القلب من طريق الجسر الذى يعبر المحمودية وكان يقودهم أليسون ؛ وقد ثبت لهم المصريون ثباتاً خليقاً بالإعجاب حقاً ، ورافعوا فى هذه المعركة دفاعاً جيداً ؛ وقد شهدها من المصريين طلبة عصمت الذى ولى القيادة بعد أحمد عبد الغفار ، وكان على رأس الفرسان ، البكباشيه محروس ومحمد فوده وسليمان تعيلب ورزق الله حجازى والقائمقام أحمد عفت من المجاهدين المصريين .

وأبلى البطل الشهيد محروس بلاء حسنا فى صد ميسرة الانجليز وجرح جرحا خطيرا فلم يمنعه جرحه من أن يشد عليهم برجاله ، وكذلك أبرى البكباشى محمد فوده بسالة وجلداً عظيمين فى الهجوم على قلب الانجليز وميسرتهم؛ وجاءه المدد بقيادة أحمد عفت وتعيلب وحجازى ، ثم جاء طلبة باشا ومعه فرقة الفرسان بقيادة أحمد عبد الغفار ؛ وبعد ست ساعات من القتال الشديد ارتد الانجليز مهزومين

ولحق بهم المصريون حتى حجبهم الظلام عنهم؛ قال عرابي في مذكراته « ولما اشتد القتال بين الطرفين ، تقدم الرجل الشجاع أحمد بك عفت حكمدار المقدمة ومعه أورطة سليمان أفندي تعيلب وأورطة رزق الله حجازي البكباشي ، وأوصلوا العدو نارا حامية ، ثم قام في الحال طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ومعه الآلاي برنجي سواري حكمدارية أحمد بك عبد الغفار ، وحرك الأورطة جهة المقدمة فتقارب الجيشان واختلط الفريقان بالسلاح الأبيض وجها لوجه ؛ ولما اظلم الليل وضعفت قوة العدو قفل راجعاً وعساكرنا في إثره تأخذ عليه الطريق وتضيق عليه السبل وتضربه حتى حال الظلام بين الفريقين . . . وعند تفقد عساكرنا وجد من المستشهدين ٢٩ من الأنفار والصف ضباط والملازم الشجاع أحمد أفندي علي ، ومن الجرحى البكباشي محروس أفندي الذي توفي بسبب جراحه ، واثنان من الملازمين و ٦٥ من الصف ضباط والأنفار ؛ وكانت خسائر العدو عظيمة وقد ترك عساكر الانجليز بميدان القتال ١٧ جثة منها الملازم ديز وصار دفنه في جسر المحمودية ، وقد شوهد الكثير من عساكرنا الانجليز يحملون قتلاهم وجرحاهم ؛ وفي اليوم التالي كانت ساحة القتال مشوهة بالدماء وآثار جر الموتى ظاهرة في نقط عديدة »

واستمر مجيء المدد إلى الانجليز فأصبح لديهم فى الاسكندرية حوالى اليوم العاشر من أغسطس نحو أربعة عشر ألفاً من المشاة وثلاث فرق من الفرسان ونحو ألف رجل من المدفعية ونيف وخمسمائة من المهندسين ؛ وعدد آخر من المختصين بأعمال الجسور وأسلاك البرق والخطوط الحديدية .

وفى اليوم الثالث عشر من أغسطس وصل إلى الاسكندرية السيد جارنت ولسلى القائد العام للحملة الانجليزية .

وفى التاسع عشر من أغسطس أعاد الانجليز وقد جاءهم المدد هجومهم على خطوط كفر الدوار ، وزحفوا هذه المرة بقوات كبيرة نقلتها القطارات المسلحة من جهة القبارى وأعانتها قوات أخرى جاءت من جهة الرمل ، والتحم الجيشان ودارت معركة شديدة استمرت ثلاث ساعات حتى غربت الشمس ، وكانت قيادة المصريين لطلبه عصمت ؛ وارتد الانجليز إلى الاسكندرية بعد أن خسروا خسائر جمة .

وأعاد الانجليز الكرة عقب ذلك أياما ثلاثة متوالية ، كانت تنشب فيها المعارك حامية بينهم وبين المصريين حتى الغروب ، والمصريون يردونهم كل يوم الى الاسكندرية بعد دفاع مجيد .

وهكذا كانت معارك كفر الدوار سجلا مجيداً وصفحة مشرقة لحرب الثورة ، وحسب هؤلاء المصريين فخراً أن يخوضوا غمار المعارك لأول مرة فى تاريخهم الطويل مدافعين عن مبدأ من أجل المبادئ ألا وهو الحرية ، وحسب عددهم خزيا وعاراً أن يحشد القوات لقتل حركة قومية . . .

قال جون نينيه : وهنا استطاع الجيش المصرى أن يثبت أمام الانجليز بنجاح نحو خمسة أسابيع ، يصد كل الهجمات بل ويدفع العدو بهجمات مضادة إلى مايقرب من أبواب الاسكندرية ، ولو لم يكن هناك باب آخر لدخول مصر غير كفر الدوار لظفرت الحركة القومية بالنجاح » .

فى الميدان الشرقى : معارك القصاصين والتل الكبير :

كانت التل الكبير مركز الميدان الشرقى فى جهاد الثورة ، كما كانت كفر الدوار مركز الميدان الغربى ؛ ولقد دارت فى هذا الميدان الشرقى معارك فى مجال أوسع وفى أعداد أكبر مما كان فى كفر الدوار ؛ وكانت فى هذه المعارك الشرقية صفحات مشرقة يطرب لها قلب كل مصرى وتتهلل أسارير وجهه ، وصفحات مظلمة ، تنسب إلى قلة من الخائنين يندى لها جبين كل مصرى

وإن كان بريئاً منها لأن مقترفيها وا أسفاه كانوا من بنى وطنه .

ومهما يكن من شناعة مافعل الخوانون المستضعفون ، فقد علت البطولة الباهرة على الخيانة السافرة الفاجرة ، وترك الأحرار المجاهدون فى هذه المعارك من دمائهم وأشلائهم ماقدموه مهراً للحرية الزهراء ، وما وضع به التاريخ حركتهم وإن غلبوا بسبب الخيانة وحدها ، فى صف الحركات التى طبعها بطابع الخلود والمجد والتضحية والفداء : وبحسبنا أن نصف هنا ما أبلى المصريون فى معركة القصاصين من بلاء ، وما كان من بطولة نفر منهم فى التل الكبير ، على قدر مايتسع لها مجال هذه الصفحات .

معركة القصاصين :

عين محمود فهمى باشا خمسة مواقع رئيسية للدفاع عن مصر : أولها : فى كفر الدوار ، وثانيها : فى رشيد ، وثالثها : بين رشيد وبحيرة البرلس ، ورابعها : فى دمياط ، وخامسها : فى الصالحية والتل الكبير ، وكان الغرض من هذا الأخير صد هجوم الانجليز من ناحية قناة السويس .

أما القيادة فقد عينت طلبة عصمت باشا لفرقة كفر الدوار ،

وخورشيد باشا طاهر على رشيد وأبو قير ، وعلى باشا الروبى على مريوط ، وعبد العال باشا حلمى على دمياط ، ومحمود باشا سامى البارودى على الصالحية ، والفريق راشد باشا حسنى لخطوط الدفاع فى الميدان الشرقى .

وكان أكبر أخطاء عرابى وأركان حربه فيما أعتقد إهمالهم هذا المنفذ الشرقى إلى مصر إهمالا قل أن نجد نظيراً له ، وصرف همهم كله إلى كفر الدوار ، ولعل مرد ذلك فيما أفهم من حوادث هذه الحرب إلى خطأ آخر لا يقل خطأ عن هذا الخطأ الاول ألا وهو اطمئنان عرابى وأصحابه إلى حيدة قناة السويس وحرصهم على إرضاء الدول بالمحافظة عليها .

ونحن إذا سلمنا بهذا الخطأ الثانى وهو اطمئنان عرابى إلى حيدة قناة السويس ، لانسلم مطلقاً بما زعم المغرضون من سبب لهذا الخطأ ، وهو انخداع عرابى بأقوال دليسبس، وعدم إدراكه أهمية ردم القناة من الوجهة الحربية ؛ لانقر هذه الأقصوصة التى شاعت وملأت أذهان الناس ولدينا الحقائق التى تدحض هذه الأكذوبة التى انساق وراءها أكثر المؤرخين، وحسبنا أن نقول رداً عليها فى هذه الصفحات الموجزة . .

كان دى لسبس جادا فى المحافظة على حيدة القناة : اقرأ برقية وزير الخارجية الانجليزية ، إلى سفيره فى باريس فى ٣٠ يوليو

« أرغب أن تبسط للحكومة الفرنسية أن حكومة جلالة الملكة وصل إلى علمها أن المسيو دى لسبس يعارض معارضة قوية أعمال حكومة جلالة الملكة فى مصر وذلك بتهديده بتعطيل القناة إذا أنزلت جنود بريطانية فى أى مكان فى القناة أو على مقربة منها » .

وفى ٥ أغسطس اجتمع مجلس إدارة الشركة اجتماعا غير عادى ، وأعلن تمسكه بحياد القناة مؤيداً بذلك رئيسه دى لسبس وقد خالف هذا القرار العضو الانجليزى مستر ستانلن .

يقول نينيه « وقد وقع نزاع خطير فى فرنسا حول الدفاع عن قناة السويس وذلك لكى يبر دى لسبس بما وعد به عرابياً ، فإنه تعهد لزعيم الثورة المصرية بأن تقاوم قوة حربية فرنسية إلى جانبه إذا اعتدت إنجلترا على حيدة القناة ولم يكن دى لسبس كاذباً » .

وحقيقة الأمر أن الوقت لم يتسع لردم القناة إذا ذكرنا أن الانجليز فرغوا من ضرب الاسكندرية فى ١٢ يوليو وأنهم سيطروا على مدخل القناة الجنوبى والشمالى قبل نهاية هذا الشهر ؛ أما قبل هذا التاريخ ، تاريخ ضرب الاسكندرية ، فلم يكن عرابى ليستطيع القيام بعمل كهذا ، بل لم يكن يستطيع التأهب للحرب مادام أنه وزير فى وزارة يمكن للخديو إسقاطها ، هذا إلى أن عملا

كردم القناة لايكون إلا فى موقف له مبرراته ، أعنى لايكون إلا عند نشوب الحرب فعلا أو توقع نشوبها .

فى أوائل أغسطس كان عرابى قد أرسل محمود فهمى باشا لبناء مايمكن بناؤه من الاستحكامات عند التل الكبير والصالحية كما أرسل بعض القوات فرابطت على مقربة من الاسماعيلية .

وفى يوم ٢٠ أغسطس بلغت السفن الانجليزية المقلة للحملة بور سعيد وكان عددها ثلاثين ألفاً . وفى هذا اليوم اقتحمت السفن الحربية قناة السويس وعلى الحياد والقانون ألف سلام ، واحتل الانجليز بور سعيد كما احتلوا الاسماعيلية من الجنوب فى نفس اليوم .

وهم الجيش المصرى بسد القناة فى بعض المواضع ، ولكن قوارب الانجليز كانت تحرس القناة ، فكان كلما قرب الفعلة من مكان أقبلت القوارب بمدافعها تصليهم نار قذائفها فيولون مبتعدين ولم يتسن للمصريين إلا سد الترعة العـــذبة فمنعوا وصول الماء إلى الاسماعيلية .

وفى ٢٣ أغسطس التحم الانجليز والمصريون أول التحام فى الميدان الشرقى وذلك فى نفيشة وبعد قتال شـــديد ارتد عنها المصريون فاحتلها الانجليز .

وفى اليوم التالى احتل الأنجليز الجفر موضع سد ترعة الاسماعيلية ؛ ودارت معركة عنيفة بين الجيشين فى المسخوطه فى فى الخامس والعشرين من الشهر وأبلى فيها راشد باشا حسنى بلاء عظيما ولكن تكاثر العدو عليه اضطره إلى الانسحاب ؛ وفى هـــذه المعركة منى الدفاع الوطنى بخسارة كبيرة وذلك بأسر رئيس أركان حرب الجيش محمود فهمى باشا .

وبلغ الانجليز القصاصين فأصبحوا على خمسة عشر كيلو متراً من التل الكبير . وانتقل عرابى من الميدان الغربى إلى الميدان الشرقى وعسكر فى التل الكبير ولم تكن تزيد قواته فى هذا الميدان عن ثلاثة عشر ألفاً من الجند النظامية ، أما المتطوعة والأنفار والفعلة فكان عددهم يزيد كثيراً عن ذلك .

ووضعت خطة القتال يقول عرابى « ثم عقد مجلس حربى تحت رياستنا وتقررت فيه هيئة الهجوم على العدو . . وكان الترتيب على هيئة شكل مقص يكتنف العدو من كل جهة . . ويقوم محمود باشا سامى حكمدار الجيش المعسكر فى الصالحية بجيشه ليلا بحيث يصل إلى يسار جيش رأس الوادى عند مطلع الفجر ويحيط بميمنة العدو والقوة التى على يمين الترعة تحيط بميسرته والعربان يقتحمون الترعة من خلفه وتقطع عليه خط الرجعة ، وبذلك لا يمكن العدو من الفرار »

وهجم المصريون على مواقع الانجليز فى القصاصين فى الثامن والعشرين من أغسطس بقيادة راشد باشا حسنى ، ودار قتال شديد جداً وتحمس المصريون وقويت روحهم المعنوية ، وكأنما تذكروا المبادىء التى يحاربون فى سبيلها فشدوا على الانجليز مستبسلين وعظمت قوة هجومهم فأجلوا الانجليز عن مواقعهم الأساسية واستولوا عليها .

واستعاد الانجليز قوتهم وهجم فرسانهم بقيادة الجنرال لو ، وبعد تلاحم شديد استردوا مواقعهم من المصريين ، وهبط الليل والحرب سجال بين الجانبين ؛ وقتل من الإنجليز فى المعركة ثمانية منهم ضابط وجرح واحد وستون منهم عشرة من الضباط ، وهذا هو أحد إحصاءات الانجليز أنفسهم وتعرف هذه المعركة بمعركة القصاصين الأولى وجاء فى أحد التقارير الانجليزية عن المعركة :

« وكان العرابيون فى عدد عظيم لم تقو عليه الفرق الانجليزية فوردت إليها نجدة من المحسمة ثم اشتد القتال واستمر إلى أول الليل فتشتت شمل العرابيين، وتكبدوا خسائر جسيمة منها عدة مدافع غنمها الانجليز. أما خسارة الانجليز فكانت قتيلا واحداً و٦ جرحى من الضباط و١٩ قتيلا و٥٢ جريحاً من الجند »

وجاء فى تقرير آخر وهو للجنرال جراهام قائد هذه المعركة :

« فى الظهر أطلق العصاة علينا ناراً شديدة من مدافع العيار الأول فلم يلحق بنا أقل ضرر . وفى الساعة الثالثة بعد الظهر أمرت رجالى بالرجوع إلى مراكزهم فعادت فرقة الخيالة إلى المحسمة . وكانت قد وفرت على إمدادات ونجدات ، وفى الساعة الرابعة تقدمت نحونا فرقة المشاة من الأعداء ، وحاولت التغلب على ميمنة جيشى وإكراهه على التسليم » .

والذى يستخلص من هذه الروايات على أية حال هو تكافؤ الجانبين فى المعركة ، ولا نجد خيراً من هذا نرد به على الذين أضلهم الاحتلال فقالوا إن المصريين لم يحاربوا . ولبثوا زمناً طويلا يرددون هذا القول .

ويجدر بنا أن نلاحظ أمراً على جانب عظيم من الأهمية وهو أن الانجليز الذين كانوا يوالون الزحف إلى الأمام قد توقفوا بعد هذه المعركة أياماً . ولم يستأنف القتال إلا بعد أن هجم المصريون عليهم ثانية فى التاسع من سبتمبر ؛ وقد كان الانجليز يبثون دسائسهم فى هذه الأيام على يد محمد سلطان باشا الذى انحاز إليهم وإلى الخديو ويشترون نفراً من الخائنين بالمال ، كما كانوا يغرون بعض البدو ليضللوا البارودى فى الصالحية ، كذلك كانوا يعدون العدة ليعلن السلطان قراراً بعصيان عرابى ، تلك الضربة القاصمة التى فعلت به ما لم يفعله جيش ولسلى مجتمعاً .

خشى الانجليز التقدم دون أن يستعينوا بهذا السلاح الذى

.. سلاح الرشوة والخيانة والغدر ، وقد خبروا ثبات المصريين واستبسالهم فى هذه المعركة ، وتبين لهم أن الأمر جد لا لعب .

وفى اليوم التاسع من سبتمبر وقعت معركة القصاصين الثانية وكاد فيها جيش مصر على قلته يظفر بالجيش الانجليزى على كثرته .. كانت لاتخرج خطة هذه المعركة فى جوهرها عن المعركة الأولى وكان المصريون هنا كذلك البادئين بالهجوم على الانجليز ، وهى ظاهرة تسجل لهم بالحمد ، إذ كان عملهم فى كفر الدوار قاصراً على الدفاع .. وصف بلنتر هذه المعركة بقوله :

« إنها كانت أفضل فرصة أتيحت للمصريين لصد تقدم الانجليز وآخرها ، ولم تكن بعيدة جداً عن النجاح »

وكان قد وصل فى الحادى والثلاثين من أغسطس إلى مصر نبأ موافقة السلطان على إصدار قراره بعصيان عرابى ، وهرول سلطان باشا إلى الاسماعيلية وقد رأى الفرصة سانحة ليوهم بعض الخونة أن نجاتهم فيما بعد تتوقف على مايفعلونه الآن .

وأحكم عرابى ورجاله وضع خطتهم على الرغم من ذلك الهجوم على الانجليز ؛ ولكن خطة المعركة وأسفاه قدنقلت إلى العدو ، بل لقد سرقت النسخة الأصلية التى رسمها عرابى بيده ، سرقها على يوسف الشهير بخنفس ، وسلمها للعدو وكان يقف بآلايه فى ميسرة خط القتال ، أى أنه كان يعد بالفعل فى صفوف العدو ، ويعزينا

أنه لم يكن مصرياً فقد ذكر جون نينيه أنه كان من حثالة الأتراك .

قاد الجيش المصرى فى المعركة الفريق راشـد باشا حسنى ، وقد بدأ الهجوم فى الثلث الأخير من الليـل ؛ والتحم الجيشان والعدو على عـلم بالهجوم فلم يباغت ، وأسفر الصبح والمعركة حامية بين الجيشين والمدفعية من الجانبين ترسل قذائفها فى سرعة وقوة ، وتكافأ الفريقان على الرغم من تفوق الانجليز فى العدد .

وعجب الانجليز من ثبات المصريين على هذه الصورة، ولـكنهم لم يرتاعوا لأنهم كانوا على علم بالخطة ؛ وتلفت قواد المصريين وقد اشتد القتال حين أصبح الصبح ، يتوقعون دخول محمود باشا البارودى الميدان من الصالحية ليكون على ميمنة العدو ، وقد تأخر عن موعده فلم يدخل فى غسق الفجر كما كانت تقضى به الخطة ؛ واستبسل القواد مؤملين أن تنهار ميمنة العدو على يد البارودى حين يباغتها ؛ ورصد الانجليز للبارودى قوة من المدفعية حالت بينه وبين وصوله إلى موضعه من المعركة ، ومما يذكر أن بعض البدو ممن اشتراهم سلطان قد أضلوه فى الصحراء فتأخر قدومه .

وارتفع النهار ونار الحرب مستعرة ، والمصريون يكرون على خطوط الانجليز كرات متلاحقة؛ وقد أثبت كل من البطلين على فهمى باشا ، وراشد حسنى باشا بطولة فذة طول النهار ومن حولهم الجيش المصرى يبهر العدو ببسالته واستماتته ، وقد انقلبت خطته إلى دفاع بعد أن كانت خطة هجوم ، وذلك لأن العدو وقد علم بها قلبها عليه !

ووقف الجيش لا يتزحزح ولا يهن على الرغم من شدة مدفعية الانجليز وكثرة عددهم، وظل القتال على أشده ، ولكن القدر أبى إلا أن يصحب المصريين بمصيبة لا تقل شأناً عن أسر محمد فهمي باشا كأن لم يكفه ما أحاط بهم من خيانة ، فقد أصيب كل من بطلي المعركة برصاصة في جسمه أقعدته ، الأول في ساقه ، والثاني في قدمه ، وبخروجهما ضعف هجوم المصريين ، وانقضى اليوم ولم يظفر بالنصر أحد من المتحاربين .

قال الأستاذ محمد رفعت «وقد أبلى المصريون بقيادة الفريق راشد باشا حسني المعروف بأبي شنب فضة في هذه الموقعة بلاء حسنا فأوقعوا خسائر جمة بصفوف الانجليز وزحزحوهم عن مواقعهم أوكادوا يظفرون بالنصر إلى أن جرح راشد باشا حسني جرحا بليغاً فذاع الخبر بين المصريين وبدأوا يتقهقرون » .

وقال بلنت « فوجىء العدو بالهجوم وظلت المعركة زمناً طويلا غير معروفة العاقبة وأوشك دون كنوت في وقت ما أن يقع أسيراً » .

وقال عرابي « حين كنت بسجني في القاهرة أحضر لي السير شارلز ولسن خطة المعركة وسألني عما إذا كانت من رسم يدي فأجبته نعم فأخبرني كيف حصلوا عليها ، ثم قال إنها خطة وربما كنتم بها تنتصرون علينا » .

بطولة محمد عبيد وأصحابه فى التل الكبير :

هجم الانجليز بعد معركة القصاصين بأيام على التل الكبير ، وقد دلهم خنفس على الطريق، بل لقد وضع لهم الفوانيس على المسالك ليخترقوها فى يسر، وإنا لنحتقر ما فعل خنفس أن نعقب عليه بكلمة .

وكان المصريون نائمين فى خطوطهم فما راعهم إلا أصوات البنادق والمدافع وإلاالرصاص يحصدهم فى صورة وحشية، ولم تكن هذه فى الواقع معركة ، ولكنها كانت قرصنة فى الصحراء لاندرى كيف يجعلها الانجليز من مفاخر ولسلى فينعمون عليه من أجلها بلقب اللورد ، وكان خليقاً بهم أن يدركوا أنها من مخازيهم ومخازيه ، فهذا السطو القائم على الخيانة والغدر أقرب إلى عمل اللصوص منه إلى عمل الجند ، ولكن الانجليز كثيراً ما أنعموا بهذا اللقب على كل متلصص مثل هذا كان له يد فى بناء الامبراطورية التى أخذ اليوم بناؤها يتداعى .

وفر أكثر رجال الجيش المصرى مذعورين وقد أخذوا وهم نائمون ، ولكن الميدان فى هذه المحنة ، وفى هذه المباغتة التى تطيش فيها أحلام الرجال لم يخل من نفر من المصريين حفظوا شرف قومهم.

هؤلاء هم الأبطال الميامين البواسل الشهيد الميرالاى محمد عبيد ، وأحمد بك فرج، وعبدالقادر بك عبدالصمد، وحسن أفندى رضوان .

وقف هؤلاء الأربعة البواسل بفرقهم مستبسلين وكان مجموعها لا يزيد عن ثلاثة آلاف ، وكان أكثرهم بسالة وحمية وإقداما محمد عبيد بطل الهجوم على قصر النيل يوم أخرج عرابيا وصاحبيه من السجن ، فقد صمد هنا للإنجليز برجاله وأوقف زحفهم وقاتلهم قتالا شديداً فنى فيه معظم جنده ، فتقدم فى شجاعة واستقبل الموت راضياً مرضياً وذهب شهيد وفائه وبطولته .

ويلى محمد عبيد فى البسالة حسن رضوان قومندان الطوبجية الذى أصلى الإنجليز ناراً حامية بمدافعه وأوقع بهم على تفوقهم خسائر جسيمة حتى سقط جريحا فى الميدان ، وكان الإنجليز يحسبونها فرقة فرنسية كأنما استكثروا هذه البطولة على المصريين، ولما حمل رضوان أسيراً إلى ولسلى، وأقبل يقدم له سيفه لم يشأ أن يأخذه منه احتراما لبطولته وأثنى عليه ثناء عظيما .

ولقد استمرت المعركة بين هؤلاء الأبطال وبين الإنجليز نحو أربعين دقيقة ، وكان شهداء المصريين نحو ألفين ، أما الجرحى فلم يعرف عددهم لفرارهم ، وقتل من الانجليز سبعة وخمسون منهم تسعة ضباط وجرح اثنان وأربعمائة منهم سبعة وعشرون من الضباط

بطولات بعد الحرب

بالقضاء على الثورة الوطنية وبدخول توفيق العاصمة فى حماية الاحتلال بدأ فى تاريخ مصر عهد من أسوأ العهود؛ وأخذ توفيق

وأتباعه ينكلون بالأحرار وينتظرون اليوم الذى يظفرون به برأس عرابى ورؤوس أصحابه وقد أتى بهم فى غيابة السجن .

على أن زعيم الحركة الوطنية قد أبدى مع بعض أصحابه من البسالة فى هذا الموقف الرهيب ما يحمد لهم أكبر الحمد ومن هؤلاء الشيخ حسن العدوى وأحمد بك رفعت مدير المطبوعات .

تجلت شجاعة عرابى فى تقريره الذى قدمه وهو فى سجنه إلى محاميه الانجليزى مستر برودلى الذى حضر للدفاع عنه بفضل مساعى صديقه بلنت وقد جاء فى هذا التقرير عن مسلك الانجليز نحوه قوله «ألحقت بى إهانة على صورة تظل صارخة فى وجه الشرف البريطانى ووجه كل انجليزى » وفى قوله فى تقرير كتبه فى السجن عن الحركة الوطنية وسلمه لمحاميه «دخل الخديو الاسكندرية وأسلم نفسه وقد أخليت المدينة من الجيش ومن الناس ولم يكن تبعاً لقوانيننا عما يليق بحاكم أمة ولا بما يسمح به أن يفعل ذلك فينحاز إلى أمة تحاربنا ، أمة عقد هو نفسه العزم فى مجلس موقر على مقاومتها » وفى قوله عن إنجلترا « إنه يدهش » كيف أن دولة عظيمة الصيت كانجلترا تقول أنها صديقة الإنسانية وأنها تحرر العبيد وتحترم القوانين ، كيف أن دولة كهذه تقدم على محاربة

أمة كل جريمتها أنها قاومت حاكمها حين رأته لايحترم قانون شعبه ولا حقوق هذا الشعب ».

أما عن الشيخ حسن العدوى ، وكان شيخاً يستشرق للثمانين تقل السن ولا السجن من شجاعته ، ولندع لبرودلى محامى عرابى أن يقص علينا ماشهده من بسالة هذا الشيخ الذى تبيض به وبأمثاله صفحات التاريخ المصرى ، قال برودلى «وفى صوت كصوت الرعد سأل اسماعيل أيوب باشا ، الشيخ الضعيف الطاعن فى السن ألم يوقع ويختم بخاتمه على قرار يقضى بأن سمو الخديو توفيق باشا يستحق العزل ؟ وظهر على حسن العدوى كأنما استعاد حمية شبابه واتكأ على لى المنضدة وبسط يده وأثبت نظره فى وجه اسماعيل أيوب وقال : أيها الباشالم أر الورقة التى تتحدث عنها ، ولايمكننى أن أقول شيئاً عما إذا كنت وقعت عليها أو ختمتها بخاتمى ، ولكنى أقول لك ما يأتى : إنك إذا أحضرت إلى ورقة تحتوى على مثل المعنى الذى ذكرته فإنى أبادر بالتوقيع عليها وختمها بخاتمى فى حضورك الآن أإذا كنتم مسلمين أتستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا وقد خان بلاده وذهب إلى الإنجليز لم يعد يصلح لأن يحكمنا ؟.

ولو أن قذيفة ألقيت فجأة وسط الحجرة ماأعقبت من الوجوم والغم مثل ماأعقبته كلمات الشيخ ، لقد ظهرت الصفرة فى وجنتى

اسماعيل أيوب السمراوين ولم ينبس أحد لحظة ببنت شفة . ثم طلب إلى الشيخ فى رفق أن يبرح الحجرة ، وبعد بضعة أيام أطلق سراحه على أن يذهب إلى قريته حيث لا تكون له صلة بعد بتاريخ مصر »

ولندع برودلى كذلك يقص علينا بعض ما رأى من جرأة أحمد رفعت وشجاعته ، قال «أدخل رفعت وكان يبدو فى حالة عصبية شديدة وأجلس على كرسى بجانبى ولن أنسى أبداً التماع الشرفى عينى اسماعيل أيوب حين تناول عدداً قديماً قذرا من جريدة الطائف كان به مقالة بقلم رفعت يقارن فيها بين المدنية الفرنسية والرصاص الانجليزى وقال رئيس اللجنة يخاطبنى . يا صديقى العزيز : أظن أنه يجب أن تتنحى عن الدفاع عن مثل هذا الرجل بعد هذا ، وألق إلى بالصحيفة ، وقرأت المقال وكتبت على ورقة صغيرة : لو أننى كنت مكانه لفعلت عين مافعل »

وسأل رئيس اللجنة المتهم عن برقية فى تلك الصحيفة فيها دفاع عن عرابى أكان هو مرسلها فقال رفعت بك « نعم وذلك بأمر مجلس الأمة الذى كنت أنت نفسك عضواً فيه »

وقال الرئيس « إنى أنفى نفيا قاطعا أنى كنت حاضراً أثناء بحث هذه المسألة » وأجاب رفعت قائلا : لست أتذكر ما إذا كنت سعادتك قد وقعت على سجل الجلسات ولكنى أذكر أنك

ذهبت معى يوم الجمعة الثامنة عشر من أغسطس فى قطار خاص وكان بصحبتنا رؤف باشا وعثمان باشا فوزى وحسين باشا الدرملى إلى عرابى بكفر الدوار لتعبر له عما ترجوه له من نجاح »

.. وسأله الرئيس كيف سمح وقد كان مديراً للمطبوعات أن تنشر جريدة الطائف مقالات فيها طعن على الخديو فقال « إن ما قالته الطائف وما قالته غيرها من الصحف كان نتيجة لقلق الرأى العام من مسلك الخديو ، وإن الطائف جرت عما يقوله الصبية فى الشوارع » وسأله الرئيس هل معنى ذلك أنه يقر ما جاء بتلك الصحيفة فأجاب فى شجاعة « لقد تقرر فى المجلس العام الذى انعقد فى وزارة الداخلية والذى شهده العلماء والقواد والأعيان أن الخديو خرج على الشرع المقدس » وبما أنى مصرى فلم يكن فى وسعى أن أخرج على ما أجمع عليه الناس فأعاقب الطائف مخالفاً بذلك ما فى نفسى » وقال الرئيس إنه يرى من إحدى البرقيات المرسلة إلى الاستانة أنه تقرر ردم قناة السويس فهل كان ذلك من رأى المتهم فأجاب رفعت بأنها كانت ضرورة اقتضتها الحرب وأنه يأسف لذلك .

ووجه إليه الرئيس هذا السؤال « فى إحدى البرقيات المرسلة إلى القسطنطينية أن المجلس العام أمر محافظ السويس بأن يخبر الأدميرال الانجليزى أن المجلس القائم بالقاهرة هو وحده الحكومة الشرعية فى مصر ، فهل كانت هذه عقيدتك ؟ ؟ وأجاب رفعت بكل قوة « لقد قلت بالأمس إن قوة الخديو قد أوقفت

بمقتضى قرار المجلس العام الذى عقد فى القاهرة والذى تألف من كبار المصريين من العاصمة ومن البلاد : وبناء على ذلك أصبح هذا المجلس هو الحكومة الحقيقية لمصر ، وقد أيدته وعضدته الأمة كلها واضطلع بالدفاع عن الوطن » . وسأله الرئيس « هل وقعت على هذا القرار وهل كان هذا باختيار ؟ فقال رفعت وقعت عليه بمحض إرادتى ولم أجر أنا ولم يجر أحد غيرى على التوقيع »

وبعد فحسبنا هذه الصفحات المجيـــده عن الثورة العرابية التى طالما افترى المفترون أنها لم تكن إلا فتنة عسكرية وأن الأمة لم تشترك فيها فكان ذلك من أكبر عيوبها ؛ وقد رأينا كيف اشتركت فيها الأمة بجميع طوائفها وطبقاتها ، وكيف قامت الحرب نفسها على ما تبرعت به الأمة الحية المجاهدة فى سخاء وكرم وحماسة . ونحب أن نختتم هذه الصفحات ببطولة سيدة من سيدات مصر ، فقد كان الخديو فى طريقه ذات يوم من عابدين إلى قصر الاسماعيلية وكان يمر ببيت على باشا فهمى ، فما راعه إلا سيدة حاسرة الرأس تعترض عربته وتوقفها فى بسالة وتصيح به « ياتوفيق حاربت الرجال ، ألم يكفك هذا حتى تحارب النساء ؟ إنك ترانى الآن بغير نقاب وفى وضع ينال من شرفى ولكن عار ذلك يلحقك كما يلحقنى » وكانت هذه السيدة الباسلة هى زوجة على باشا فهمى وقد أثارها ما فعل حرس الخديو ببيتها ؛ ولقد شاعت بطولتها بين الأجانب والوطنيين وتحدث الناس طويلا عما لحق الخديو من خزى .



اخترنا للطالب ٤٥ الأربعاء ٣ مايو سنة ١٩٦١ الثمن قرشان

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة